

في الأدب المقارن

البطولة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ غفرى أبو السعود

البطل فرد يمتاز عن غيره من أفراد مجتمعه بمواهب عقلية أو خلقية أو جسمية، يظهر بها بينهم وينال من أجلها إجلالهم ويذلها في خدمتهم ويتولى قيادتهم في معترك الحياة ردحا من الزمن، ويترك في تاريخهم أثرا يطول عهده أو يقصر؛ فالبطل لا يكون إلا في مجتمع، وهو عادة نموذج لصفات أبناء ذلك المجتمع ومثل أعلى لنوع حياتهم، ومواهبه إجابة لمطالب ذلك المجتمع وحاجاته في فترة من الزمن، فالأمة المحاربة إذا كانت تجرى الحياة في عروقها قوية وتمتع بالصفات اللازمة للبقاء ينبغ فيها القائد، والأمة الشاكة الحيرى يظهر فيها النبي، والشعب الذى يشكو فساد أنظمتها الاجتماعية يقوم فيه المصلح

والأمة المتبدية الساذجة التى لم تستقر بعد ولم تبرح حياتها سلسلة متواصلة من الحروب، لا يكاد يظهر فيها من أنواع البطولة إلا القواد البسلام، الذين يقودونها في مهاجراتها ومحارباتها لجيرانها، ويبدون من ضروب الشجاعة ويفتقون من أفانين الحيلة والرأى والمكيدة ما يلغون به الفرصة في أعدائها؛ ولأولئك الأبطال في تلك الجماعات مكانة لا تطاول وأثر لا يبارى وكلية لا ترد، وإن أحدهم ليغنى غناء الجحافل، ويعدل بين قومه ما لا تعدل الآلاف، ولا غرو؛ فالحروب في أمثال تلك العهود أكثرها مصاولات فردية، وتسمى تلك العهود لذلك عصور الأبطال

وفضلا عما يناله البطل في عصره من تيجيل وتقدير، فإنه إذا مات وخلا مكانه وافقد مثاله، زاد ذكره ارتفاعا وزاد ذاكره مبالغة في تعظيم آثاره وتصوير وقائعته وتخيل صفاته ومواهبه، وما يزال جيل يزيد على جيل حتى تقوم حول بعض الأبطال أقاصيص طويلة السرد، تنطوى على شيء من الحقيقة

الأولى ويتكون أغلبها من صنعة الخيال وما تصبو إليه النفس الإنسانية دائما، من أمثلة القوة والشهامة والتجدة والغلب وحماية الذمار، وما تنوق دائما إلى تصوره من روائع المشاهدات، وجسام الوقائع؛ بل كانت بعض المجتمعات البدائية تغالى فترفع بأبطالها إلى مصاف الآلهة، كما فعل أوائل قدماء المصريين بأوزيريس وأخته وابنه، وكما فعل أوائل الاسكندناويين بيطلم أودين، أو إلى مراتب أنصاف الآلهة كما فعل الاغريق القدماء بأبطالهم

وإذا ما استقرت الأمة وتحضرت، وجنحت إلى السلم ولم تعد الحرب هي الحالة الطبيعية العادية التى تعيش في ظلها، تغيرت حالها الاجتماعية وضُوت مكانة أبطال الحرب قليلا وزاحمهم أبطال السلم من أنبياء ومصلحين ومشرعين وحكام وأرباب علم وفن، وهبطت قيمة القائد في الجيش قليلا فلم يعد هو وحده المهيم على مصائر الحرب بل صار للعدد والنظام والسلاح وغير ذلك حساب كبير؛ وبطل تصديق المتعدين بوقائع الأقاصيص المتخلفة عن عصور الأبطال؛ ولكن البطولة على صورة من الصور خالدة، وعبادة الناس في كل العصور لها قائمة، بل إن احتفاء الأمة بأبطالها من أبرز دلائل حيويتها، كما أن من دلائل حيويتها حفول تاريخها بأسمائهم، بل يغالى كارليل ويزعم أن تاريخ الأمة هو تاريخ أبطالها، وتاريخ العالم إن هو إلا سير الأبطال وتلك الأقاصيص المتخلفة عن عصور الأبطال إذا فقدت اعتقاد الناس بصدق كثير مما فيها فافقدت إلها هينا يسيرا، ولن تفقد ما يعجبه من روائع الأوصاف وبدائع الصور وتمتع الأخيلة وشائق المواقف والوقائع، والعرض الصادق لأحوال المجتمعات المتخلفة عنها تلك الآثار، والتأمل في طبائع الإنسان ومذاهبه في الحياة؛ فتظل تلك الأقاصيص تحفظ لنفسها، وتظل كنزا ثمينا لقرايح الأدباء وأخيلتهم، يطيب لهم الهيام في عالمها البعيد، وإجراء أفكارهم على ألسنة أشخاصها العظام، واستعارة وقائعها وتشاهدها في التمثيل لوقائع عصورهم وأحداثها، وإبراز معانيهم وأغراضهم بالإشارة إلى حوادثها وملابساتها؛ وخير مثال لكل ذلك عصر الأبطال في بلاد الاغريق؛

فصعرا الأبطال في بلاد الاغريق، الذى امتد زمن استقرارهم في شرق البحر الأبيض وتشريعهم حضارته، هو أشهر عصور

الغموض، ولغموضه ذاك رُدَّتْ إليه خرافات لعلها لم تكن منه في شيء، كقصص الملك آرثر وفرسان مائدته المستديرة، وهي قصة قد نالت من احتفال أدباء الانجليزية ما لم تنله قصة يولف، لسذاجة هذه وشدة إمتاع تلك، واحتوائها على كثير من تقاليد العصور الوسطى وأنظمة فروسياتها ومغامراتها

ولما ظهر الأدب الانجليزي الحديث، بعد انتشار الحضارة والعلم، اتخذ الشعراء والروائيون من تراث العصر السابق مادة خيالهم، ولم يكتبوا بذلك بل استعاروا خرافات عصر الأبطال الاغريق مضافا إليها تاريخ الاغريق والرومان، مما انطوى عليه ذلك التاريخ من سير الأبطال، فخلل الأدب الانجليزي بذكر البطولة وتمجيد الأبطال، سيان انجليزهم وأجنبيهم، تاريخهم وخرافاتهم، عَجَّتْ بذكر هؤلاء وأولئك روايات شكسبير، وتفنن سنسر وتيسون في سرد قصص آرثر وفرسانه، واستعار شلي أبطال اليونان وآلهتهم لبعض مواضيعه، كما في قصيدته «بروميثيوس المقيد» ولم أذكر جهدا في تصوير بطولة الأبطال الوسطى في قصصه

تناول الأدباء سير أولئك الأبطال بالدراسة الفنية لشتى الاسباب: لما رُكِبَ في الطبع الإنسان من عبادة الأبطال والشغف بحديثهم، ولما يُضْفِيه مجدهم وبأسهم على الموضوع المتناول من عظمة وجلال، ولما يبعثه حديثهم في النفس من تسام وصبر إلى المثل الأعلى، وما يبعثه ذكر أبطال الوطن في نفوس أبنائه من غر وثقة؛ فلهذا البطولة في إطلاقها وتمجيد العظمة الإنسانية في عمومها تناول شكسبير سير قيصر وبروتس وكريولانس وعطيل بالوصف، وكتب ماثيو نارولد قصيدته الطويلة سهراب ورستم، ولتبجيل البطولة القومية والاعتزاز بأبوة الوطن الذين شادوا مجده تناول شكسبير مواقف هنري الخامس في حرب مائة العام، وألف سكوت قصصه الاسكتلندية مثل خرافة منترور وكوتين دروارد

ولم يقتصر أدباء الانجليزية في تمجيدهم للبطولة واحتفائهم بالأبطال على الماضي الخرافي أو التاريخي البعيد، بل التفقوا إلى الحاضر والماضي القريب، ووقروا أبطال جزيرتهم الذين وطدوا مكائنها وأعلوا كلمتها محققين من الذكر والتعظيم، في جانبي المنشور والمنظوم؛ بل كان الأبطال الخرابيون يستعارون أحيانا رموزاً

الأبطال وأسيرها ذكرا، لأن أشعار هوميروس قد دخلت روائع الصور لأحواله وعظائم أبطاله، وبدائع الأوصاف الشاملة لمعتقدات القوم وتصورتهم لأهتهم؛ حتى إذا ما انقضى ذلك العصر وبرزت اليونان في عالم التاريخ الواضح وطلعت في عصرها الذهبي وحلت الفلسفة محل الخرافة، وبطل الاعتقاد بكثير من أخبار الألبانة والاولديسة، اتخذت أشعار الملاحم تلك مادة لضرب جديد من الأدب هو الدراما، التي ظهرت لتسد من حاجة ذلك العصر ما لم يعد يسده شعر الملاحم الذي يلتفت إلى الماضي ويتوفر عليه، ولا يعبر الحاضر التفاتا

وكلنا الالامتين العربية والانجليزية قد مرت في استقرارها وتحضرها بعصر أبطال ترك أثره في أدبها: وعصر الأبطال في التاريخ العربي هو عهد الجاهلية الذي انتهى بظهور الإسلام وظهور الأمة العربية في ضوء التاريخ المستيقن، فالجاهلية العربية شديدة الشبه بالعصر الهوميروى: فيه كانت الأمة منقسمة على نفسها لا تفتر عن القتال، ولا يزال يظهر فيها من الأبطال أمثال عنترة ومهليل ودريد بن الصمة، ولا تزال تحدث أيام المواقع وتفاخر وتنافر كما تفأخر أبطال الحروب الطروادة، ولولا أن الإسلام وضع حدا لجائيا لذلك العذر، لما بعد أن تتجمع أشعاره وأقاصيصه في ملحمة أو ملاحم كبرى؛ وكان العرب على تفرقتهم يشعرون بوحدتهم في الجنس واللغة ويجمعون في مواسم الحج وأسواق التجارة والأدب، كما كان اليونان يجمعون في دلفي وأولمبيا، وكما كان اليونان يزددون غيرهم ويلقبونهم بالبرابرة كذلك كان العرب يعتدون بعريتهم ويلقبون غيرهم بالأعاجم، ولم يقتنعوا أن يجمعوا شملهم تحت لواء العربية لدفاع الفرس في موقعة ذي قار، كما فعل الاغريق من قبل إذ تجمعوا بزعامة أثينا لرد عادية الفرس أيضا، وفي موقعة ذي قار يقول الأعشى:

لما أمالوا إلى الشباب أيديهم ملنا ببيض فظل الهام يقتطف
وخيل بكر فاتفك تطحنهم حتى تولوا وكاد اليوم ينصف
ومر الانجليز بمثل ذلك العصر في عهد استقرارهم في الجزيرة، وأهم الآثار الأدبية المتخلقة عن ذلك العصر ملحمة يولف التي تصف كيف تغلب أمير انجليزي على وحش هائل أقض مضاجع بعض الملوك المجاورين، وذلك العصر في التاريخ الانجليزي شديد

وقسم ظهر الصليبيين في سورية ، وعبد الرحمن الداخل الذي شاد من الفوضى دولة من أزهر دول التاريخ ، ومحمد بن القاسم ، الذي فتح السند وهو يافع والذي قيل فيه :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة يا قرب ذلك سوددا من مولد
ولكن الأدب العربي قد نبذ ذكر أولئك جميعاً ظهرياً ،
ولم يحتو من ذكر البطولة والحماسة والحروب إلا على وقائع
ثانوية كفتح عمورية وأعمال أنصاف الأبطال ، كبدربن عمار ،
 وغيره من ممدوحى الشعراء الذين كانوا يطمعون في رضاهم
ونواهم ، فجاء مدحهم لهم شديد التكلف مغرقاً في التهويل ؛ أما
إذا لم يكن نوال ولا سلطان حاضر فلا بطولة تستهزئ نفس الشاعر ،
ولا عظمة تستدعى إعجابه وتستجيش وجهه ، ولا يرد ذكر
عظماء الجاهلية في القصيد إلا مستعاراً صفاتهم وفضائلهم للدخول
مهما ظهرت فضفاضة عليه داعية إلى السخرية ، بل كان أولئك
العظماء يُردون في مواقف الملق لأرباب السلطان : فقد قيل إن
بعض الحضور عاب على الطائي تشبيهه بمدوحه « بأجلاف العرب »
حين أنشد سينته في مدح أحمد بن المعتصم فقال منها :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
ومن مثل هذا الحديث تبين بعض أسباب إغراض الأدب
عن حديث البطولة : كالتكسب بتعليق أمراء أنانيين يابون إلا
أن يكون كل المدح لهم ؛ بيد أن هناك سبباً أهم هو انعدام روح
القومية بين العرب : فقد كانت العصبية القبلية فوق القومية
العربية في عصر الجاهلية ، فلما وحد الإسلام العرب تحت لوائه
وحض على التآخي ونبت العصبية ، لم يستمر العرب دولة واحدة
مستقلة منعزلة زمناً طويلاً كافياً لتوحد عناصرها توحداً صحيحاً ،
واعتناقها جميعاً للقومية العربية مكان العصبية القبلية ، بل اندفعوا
وهذه العصبية ما تزال على أشدها يفتحون شرقى العالم وغريبه ،
فاذا هم في بضع سنين يموجون في امبراطورية مترامية ، ضلت
قوميتهم العربية في قومياتها المتعددة ، وظلت عصبيتهم المتأصلة
تستأثر بولائهم وتثير الفتن بين قبائلهم ، وكان هذا التناحر
القبلي من أكبر أسباب انتصار الفرس ، ووثوبهم إلى السلطان
على أيدي العباسيين

فالتجمع العربي عرف العصبية القبلية الضيقة الحدود

للعظماء المعاصرين ، كما فعل ادموند سبنسر في قصته الشعرية
والملكة الحسناء ، وكما قيل إن شكسبير قد قصد من الرمز
لشخصية هملت إلى شخصية إرل إسكس ؛ وقد احتفل سودى
وكاميل ونيسون وما كولي بتمجيد أبطال الانجيز وعظمتهم
في البر والبحر أمثال نلسون وولنجتون وكلايف . وكتب كارليل
كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » ، فأسهب في الكلام على مظاهر
البطولة في شتى الأزمان والأمم ، وأثر الأبطال في تقدم العمران
البشرى وما هم جديرون به من حفاوة

فالآدب الانجيزى . بعد انقضاء عصر الأبطال المحاربين ،
لم يخل من ذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، بل ظل معنياً بأبطال
الماضى ولم يجعل الحاضر دبر أذنه : لأبطال الماضى البعيد بوقائمه
الخارقة التمجيد والتصور الفنى المبالغ المغرق في الخيال
والشاعرية ، ولأبطال الحاضر التكريم والتأريخ الذى هو أدنى
إلى الحقيقة دنو عصرهم من الأذهان ، وأبعد عن الخرافة والخيال
بعد الإنسانية عن عصور طفولتها ؛ أما فى الأدب العربى فقد
انقطع ذكر الأبطال أو كاد بانهاء عصر البطولة الجاهلية :
أهل الأبطال الجاهليون أو فازوا بالنظرة العابرة والذكرة
العارضة ، ولم يكن أبطال الإسلام أوفر منهم حظاً من عناية
الأدباء . مهما كان نصيبهم من اهتمام المؤرخين ومكانهم
فى التاريخ

ولم يخل تاريخ العرب بعد الاسلام من أبطال يمجدون
وتنسج حولهم القصائد الطوال ، ولا أقفر تاريخهم من حوادث
ملوثة بالوحى الشعرى الصادق ، بل إن تاريخ نهضتهم وبسط
سلطانهم لهو ملحمة التاريخ الكبرى التى تزدى بكل ملحمة ،
وتسخر من الوقائع الموضعية الضئيلة التى حاك حولها هوميروس
قصيده الفاجر ، وقد أنجبت تلك النهضة - بعد شخصية الرسول
الكريم التى لم يجد يمثلها الزمن - نخبة من أبطال السلم والحرب ،
كخالد وعمر وعلى وابن العاص ومن عاصرهم وتلاهم من خول
الأبطال الذين لم تنجب أمة أعظم منهم ، واحتوى تاريخ العرب
على سير أفذاذ يستفزون الوحى الشعرى خاصة ، لما انطوت
عليه سيرهم من طرافة وجاذبية : كالحسين الذى استشهد على أسنة
الرماح آياً أن يستأسر ، وصلاح الدين الذى رفع لواء الاسلام

مواضيع أو صور جديدة لم يرثها عن العرب الأولين ، وهذه النزعة المحافظة قد نفي من حظيرته كثيراً من فنون القول ومناوح الفن ، لم يرها من شأنه ولم يحسبها جديدة بالتفاتة ، لأنه لم يرثها عن الأقدمين ولم يطلع على أدب الأغرقي فيقف على بدائع النظم التي تأتي من ذلك الباب

وكان الأدب العربي كلما نفي من حظيرته باباً من أبواب القول يمت إلى الطبيعة الإنسانية بسبب لا يجذ ، ويروى من النفس البشرية غليلاً دائماً الحاجة إلى الري ، تلقفه عنه الأدب العامي قهض عنه بالعبء الذي طرح ، وأثر إرضاء النفس الإنسانية حين أثر الأدب الفصيح إرضاء التقاليد ، ومن ثم حالك الأدب العامي ، أو الخيال العربي ، حول أبطال الجاهلية كعترة وكليب ، وعظما الاسلام كعلي بن أبي طالب وهرون الرشيد ، روائع قصص البطولة ومنازلة الصناديد ومقابلة الانس والجان واجتلاء أسباب المتعة والبهجة والفكاهة ؛ وما كان بالأدب العربي الفصيح قصور عن ذلك الضرب من القول لو أراده . انظر إلى روعة الوصف في قول المتنبي :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفي أذن الجوزاء منه زمازم

وقول ابن هانيء الاندلسي في جيش جوهر :

إذا حل في أرض بناها مدائناً

وإن سار عن أرض ثوث وهي بلفع

فهذا وصف للجيش لن تحوى أبلغ أشعار الملاحم أروع منه ، ولا غرو : فقد كانت المادة متوفرة لأدباء العربية لينسجوا من أحاديث البطولة وأوصاف المواقع ما شاءوا ، فقد تفنن المسلمون في وسائل الحروب البرية والبحرية وحازوا فيها غايات السبق ، والدول والانقلابات كانت تتوالى على أعين الأدباء تبعاً واللغة العربية الرحبة المساعدة بالألفاظ ، الغنية بالاوزان الرصينة والقوافي المتعددة ، خير معوان على نظم قصيد الملاحم ووصف عظامم الابطال ، فلو التفت الشعراء إلى هذا المجال من القول لرأوا سعة ولكنهم أغفلوه فيها أغفلوا ، وعدوا البطولة والابطال شأناً من شؤون التاريخ ، لا فناً من فنون الأدب

فهمى البر السعور

والامبراطورية العالمية الفضفاضة الجوانب ، ولم يعرف القومية العربية التي تسمو على العصية وتفخر بأبطال العرب الغابرين من أي الأحياء كانوا ، والتي تضيق دون مدى الامبراطورية الواسعة ، التي لا يجمعها ماض واحد ولا تشترك في تراث عمراني ثقافي فرد . فلم يكن العربي المسلم يفخر بأبطال العرب المشتركين كابن الوليد وابن الخطاب قدر ما يفخر بآبائه الذين تنتسب إليهم قبيلته . فابن الرومي في القرن الثالث يمدح أبا الصقر فلا يفوته أن يمدح قبيلته شيان ، وأبو الصقر يرى أن ابن الرومي لم يوف شيان حقها فيحرمه العطاء ، وأبو فراس في القرن الرابع يفخر ببنى حمدان الذين يراهم لم يخلقوا إلا له لجد أو لبأس أو لجود ، ولا يرد ذكر العرب في شعره ، وهذه النزعة القبلية الضيقة لا تنتج شعر بطولة فنياً راقياً ، بل تنتج الروح القومية المتدقة

إنما كان الدين يحل محل القومية من نفوس العرب ، ومن ثم كان له في أدهم أثر بعيد المدى ، ولذلك يرى أن جانباً عظيماً مما قد ندعوه شعر بطولة في العربية يدور حول أعظم الشخصيات الدينية في الاسلام بعد الرسول الكريم ، شخصية الامام علي ، وشخصيات أبنائه : ففي الأشعار التي تندب مصارعهم — رغم اتسامها بالحزن والفجعة ، وقلة ما تسجله من عظامم أولئك الابطال الذين نهضوا في الحقبة بعد الحقبة ، وساروا إلى الموت مملوئين ثقة وبسالة — تمجيد صادق للشعور للثل العليا مشخصة في أولئك النفر الغر الميامين ، ولدعليل وابن الرومي وغيرهما أشعار حارة فيهم ، ومن ذلك قول الأول :

وليس حي من الأحياء فعله من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمانهم كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
وسبب آخر عظيم الأثر في خلو الأدب العربي من تمجيد البطولة ، هو أن هذا الضرب من الأدب ضرب فني يحتاج في ممارسته إلى تفرغ وطول معاناة وكثرة مراجعة ، ومثل هذا الفراغ لم يتهيأ لأدباء العربية ، ومثل هذا العكوف أو الترهيب الفني الذي حظي به ملتون ووردزورث وتنيسون وغيرهم من شعراء الانجليزية لم يفز به شعراء العرب وكتابهم ، أضف إلى ذلك أن الأدب العربي كان دائماً يؤثر التقليد ويحجم عن اتخاذ